الفصل العاشر

أعظم الفتوحات

" إنه ما من رجل غير محمد نذر نفسه لهدف أسمى كهذا الهدف ، فقد كان هذا الهدف مما يفوق القدرة البشرية . هدم المعتقدات الباطلة التي تتخذ زلفى وواسطة بين الخالق .. ، رد الله إلى الإنسان ، والإنسان إلى الله ... ، الفكرة العقلانية والقدسية للألوهية الصحيحة في هذا السديم من الشرك والوثنية .... ما من رجل سوى محمد أنجز بمثل وسائله الضعيفة عملا كهذا العمل الذي يتجاوز المألوف ويفوق طاقة البشر ، ذلك لأنه لم يعتمد في تصوروانجاز مقصد عظيم كهذاالمقصد إلا على نفسه ، ثم قلة من الاميين في ركن من اركان الصحراء .

ثم انه ما من رجل عدا محمد استطاع أن في مثل هذا الوقت القصيرترقى إلى مثل هذه العظمة والاستمرار، إذ ما أن مضى اقل من قرنين على مبعثه حتى ساد الإسلام المبشر به ارجاء البلاد العربية كلها كاسبا لتوحيد الله كلا من الفرس وخراسان وجنوب الاتحاد السوفيتي والقوقاز ، وأسبانيا ، وجزءا من بلاد الغال".

○ شاعر فرنسا الكبير : لامرتين.

لقد شهدت الإنسانية الكثير من الفتوحات في مختلف المجالات ، وتلك الفتوحات هي التي أعطت للإنسانية وجهها المشرق الوضاء ، ودفعتها في مضامير التطور والتقدم ، سواء في المجالات الفكرية والعلمية والأدبية . وأصبحت الإنسانية تدين لأصحاب تلك الفتوحات وتجلهم ، وتبوأهم مكانة عظيمة تتناسب وما قدموه للإنسانية .

ولكن أعظم تلك الفتوحات ، الفتوحات التي تمت في مجال الضمير الإنساني . لأن أي تطور أو تقدم إن لم يكن دافعه ومحرضه الضمير فلا قيمة له؛ لأن الضمير هو أنبل وأشرف محفز للإنسان ، أن يضع مصلحة الإنسانية فوق كل وأي إعتبار

وهناك من يعتبر أن الفتوحات العلمية هي أعظم تلك الفتوحات . لأنها هي التي نقلت الإنسانية أو عبرت بها من مرحلة إلى أخرى ، أو خلقتها خلقا آخر ولولا تلك الفتوحات العلمية لبقي الإنسان وظل في ربقة الجهل والتخلف ، تمضي عليه القرون فما تزيده إلا تخلفا وتأخرا . ولكن إذا نظرنا إلى تلك الفتوحات فسنجد أنها ما كانت لتفتح للإنسانية أبوابا وطرقا ومجالات إلى المستقبل إلا بقدر ما توافر لدى أصحابها قسطا ونصيبا من بواعث ونوازع الضمير ، وإلا لظلت تلك الفتوحات مجرد أفكار هائمة في رؤوس أصحابها ، أو لبقيت حكرا على فئة دون فئة ، وهذا في حد ذاته ينتقص من كونها فتوحات ، لأن الفتوحات لا تعد كذلك إلا لأن نفعها عم البشرية بأسرها ، من تحمل ضريبتها أو من لم يتحمل ، من بذل في سبيلها الكثير ومن لم يقدم أي شيء ، ولابد أن تصدر البشرية حكما وصكا أن هذا فتح أفادها في ماضيها ويفيدها في حاضرها ، وسينفعها في مستقبلها والإنسانية لا تشغلها المنافع المادية أو العاجلة ، بقدر ما يشغلها ما ينفعها في آجلها ، ويقوم منها الضمير ، وما يجعل أحكامه هي المهيمنة ، وهو القاضي الذي تلجأ إليه كلما دفعها دافع إلى ذلك . وكل تلك الأوصاف لا تنطبق بحق إلا على الرسالات السماوية ، فهي الفتوحات التي شهدتها الإنسانية على مدار تاريخها

الطويل، لأن كل تلك الرسالات قد أكدت على شيء واحد، أن الضمير يجب أن يقود الإنسان في حياته على تلك الأرض، وليس شيئا آخر.

نعم، كثير من الدعوات والرسالات لم تنل قسطا من النجاح، والبعض وصل إلى درجة متواضعة من التوفيق والنجاح، ولكن لا شك أن حتى تلك التي لم توفق تركت أثرا، وسجلت علامة ونبهت الأذهان، بل وبعث النبض في الضمير وهذا النبض - وإن كان ضعيفا - فهو دليل - وإن لم يكن قويا - على صحوته الكاملة، إلا أنه إشارة على أن الضمير لم يمت، وأن هناك أنفاس متقطعة واهنة تتردد بين الحين والآخر، وأن هناك حركة ضعيفة تلمحها العين الفاحصة، وأعداء الضمير على مر التاريخ أرادوا أن يكون الضمير على تلك الدرجة من الضعف والوهن، ليس هو بالميت، وليس هو بالحي، أما لماذا لم يجهز على الضمير، ويوجه إليه طعنة قاتلة ويستريح أعداء الضمير منه، فهذا يرجع لأمرين:

- أن الضمير هو صوت الله الذي يتردد بدون توقف في هذا الكون الواسع أو هو نور الله، والصوت والنور من المكونات الأساسية والأصيلة في هذا الكون، وأن تهدم هذا الكون، فهذا شيء خارج طوق وقدرة الإنسان، إذن الضمير قدر مقدور على البشرية.
- أعدى أعداء الضمير يريدونه ويحافظون عليه، لا لكي ينتشر ويسود في حياة الناس، ولكن ليهمنوا ويتحكموا فيه؛ لأنهم يعلمون أنه قادر على أن يعيش في أي مكان وتحت أي ظروف قاسية، وكذلك قادر على أن ينمو ويكبر، وأن يكون له الكلمة العليا، وهذا يمثل أكبر الخطر عليهم، وعلى مشاريعهم، أما لماذا لا يتخلصون منه نهائيا؟ لأن أكبر مكاسبهم ما يحققونه باسمه، فكيف يخدعون الآخرين الخديعة الكبرى إلا وهو معهم ولكنه ضمير مروض، مخدر، مسلوب الإرادة، ممنوع عن الفعل والعمل

وعندما يستعصى الضمير على الترويض والخضوع ، ويعلن عن نفسه ، ويبدأ في أخذ حقه المشروع ، فإنهم يضحون به على أقرب مذبح !

وتاريخ البشرية حافل بالمواقف والمواقع والمعارك ، التي ذبح فيها الضمير ذبحا مجسدا في صورة أنبياء ورسل ومصلحين وقادة وثوار ، وقفوا صامدين أمام الظلم والاستبداد والبطش والجبروت ، وكانت نهاية بعض هؤلاء مؤسفة في زمانهم ، ولكن كانت مناط العظمة والعبرة لكل الأجيال المتعاقبة ، يلهمها ودافعا وباعثا لاستمرار روح الضمير تطوف في سماء الإنسانية ؛ لتبقى شاهدا على سمو ورقي هذه الجبلة التي شاءت إرادة الله أن تشتمل على قبس من نور وصوت الله عز وجل .

وعلى قدر عظمة الفتح تكون القوة المناهضة والمعارضة له ، وإذا كانت طموحات الفاتح متواضعة هينة ، فإنه يستدعي ويستنفر ويستثير من المعارضة ما يتوافق وتلك الطموحات ، وإذا كانت طموحاته بلا حدود ، فالمعارك التي سيثيرها ستكون بلا حدود ايضا .

وطموحات رسول الله - ﷺ - أو طبيعة الدعوة التي نذر نفسه لها ليست لها حدود ، فقبل أن يستقر الأمر له في الجزيرة العربية ،وما يزال الإسلام غضا طريا ، وعود المسلمين ما يزال لينا ، يتلقى الضربات والطعنات من هنا وهناك ، أرسل النبي رسله إلى خارج الجزيرة لأكبر إمبراطوريتين في ذلك الوقت ، وأيضا إلى النجاشي وإلى مصر ، يدعوهم إلى الدخول في الإسلام .

وبالفعل أثارت تلك الدعوات التي وجهها رسول الله الكثير من الغضب عند البعض ، حتى أن الروم فكروا في تجهيز حملة تخترق الجزيرة العربية وتأتي بهذا النبي مقرنا في الأصفاد عقابا له على جرأته في مخاطبتهم بتلك الطريقة وهذا الأسلوب !

دعوة تلك طبيعتها ، أنها إلى الناس كافة ، ممتدة ما امتدت الأرض أمامها متسعة ما اتسع الفضاء .

وداع تلك طبيعته وشخصيته . يجسد الدعوة تجسيدا صادقا . يرى أن تكون دعوته هي الكلمة الأخيرة في النشيد الإلهي المقدس لأهل الأرض . وأن تلك الكلمة - التي لا كلمة بعدها - ينبغي أن تعيها كل الأذان . وأن تستوعبها كل القلوب . وأن تفهمها كل العقول . وأن تكون من القوة والوضوح والسطوع . وأن لا شيء يحجبها وان لا شيء يخفيها . وأن لا شيء يمنعها عن الناس أو يمنع الناس عنها . وأن لا تتعرض الدعوة - كما تعرض غيرها - للخذلان والهزيمة والحديعة .

طبيعة الدعوة هنا . وطبيعة شخصية الداعي . تحتم أن تكون القوة ليست ترفا أو وسيلة أو صورة . القوة هنا والسيف . من صميم الدعوة . بحيث إذا تخلت الدعوة عن القوة . فقد تخلت عن جزء من طبيعتها . وإذا تخلت عن هذا الجزء - بالتحديد - فقد تعرضت للانكشاف . وإذا انكشفت فإن بنيانها الشامخ والراسخ قابل لأن يتداعى وينهار .

وأصحاب الدعوى أن الإسلام انتشر بالسيف .

وأصحاب الدعوى أن الإسلام لم ينتشر بالسيف .

كلاهما على خطأ . لأن كلا الرأيين . يفصل بين الدعوة وطبيعتها . أو يريد أن يجزئ شيئا لا يتجزأ . أو يفصل شيئا واحدا . فليست القوة من آليات الدعوة الإسلامية . وليست القوة من أساليب وطرق الدعوة الإسلامية . القوة هنا من طبيعة الدعوة . الفرق هنا كالفرق بين وجود ني وحوله وأمامه وعلى يمينه ويساره جنود تحرسه وتدافع عنه وتنافح دونه . وبين ني هو من يتولى حراسة نفسه والدفاع والجهاد عن نفسه . ليس هذا فحسب بل من حوله يحتمون به ويلوذون به ويلجئون إليه . ويستمدون منه القوة والشجاعة .

فالقوة بالنسبة للدعوة ليست كالسلاح للجندي . يحمله وقت اللزوم . ويتركه حينما لا يكون في حاجة إليه . القوة نسيج حي من أنسجة الدعوة الإسلامية . خلية أو خلايا رئيسية تدخل في تكوين كيان الدعوة . وإذا أبطلت عمل تلك الخلايا

فأنت لا تدري مدى الخلل الذي سيتغلغل في الكيان . ولا تدري متى يتقوض ويتداعى هذا الكيان .

ولكن أي قوة ؟

حينما تعرف ملامح وسمات ومجال استخدامات تلك القوة والمحظورات والموانع المحاطة بها ، تدرك أن السيف في الإسلام لم يكن سيفا مسلطا على رقاب العباد . ولكنه كان كمبضع الجراح لا يزيد ولا يجور ولا يتعمق أكثر مما هو مسموح به بأي حال من الأحوال . وإذا استخدم فهو يستخدم لبتر واستئصال الأجزاء المريضة المتليفة الخبيثة التي يمثل بقاؤها خطرا محققا على الكيان الحي . فهي أجزاء متسرطنة أكل وأتلف ودمر السرطان خلاياها . وسوف ينتقل ويتسرب في صمت رهيب وسكون مفزع إلى بقية أعضاء الكائن ليدمر ويتلف ويميت ... ٥ ـا البتر ليس قسوة . والاستئصال ليس تحجر مشاعر . ولكنه في قمة الرحمة وفي ذروة الشفقة . فكل ما تفعله رائدك وهدفك هو استبقاء الكائن الحي وانقاذه من موت محقق ، من نهاية مأساوية سيصل إليها عن طريق الالام والمعاناة والعذاب .

يكفي أن القوة هنا الذي سمح واذن باستخدامها هو الله - عز وجل - والمستخدم لها هو نبي . والجيوش هي جيوش نبي تأتمر بأوامره وتنتهي بنواهيه .

" وهو دين يعلوا بالقوة ويدعو إليها . ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ويستفرغ همه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف . ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى . وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة .إن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها . وتلك تعمل للتفريق . وهو يعمل للمساواة . وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية . وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية " [158] .

١٥٨- من مقال بعنوان (الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام) مصطفي صادق الرافعي- مجلة الأزهر ربيع الأول ١٤٣٣ – فبراير ٢٠١٣ الجزء ٣ السنة " ٨٤"

إذن طبيعة الدعوة الإسلامية تستنفر وتستفز جيوش لا حصر لها من الأعداء والمعارضين ؛ لأنها دعوة – ولأول مرة في التاريخ الإنساني – تخطت الزمان والمكان . ليس هذا فحسب بل هي التي تصوغ زمانها ومكانها . ولن يتأتى لها ذلك إلا إذا أصبحت كل الأمكنة هي مكانها ،وكل الأزمنة هي زمانها .

وطبيعة الداع – النبي – تستنفر وتستفز العد . . فما فطر عليه – ﷺ – من قوة وصلابة وإرادة وتصميم ومضاء عزم وفناة لا تلين وعزيمة وحماس لا يفتران وعدم قبول بأنصاف الحلول . كل هذا يجعل هناك نوعية وحيدة من العلاقات التي تربط بينه وبين من حوله ،فإما أن تنضوي تحت لواء دعوته . وإما أن تتركه لشأنه وتذهب لشأنك . وإما أن يكون التحدي . التحدي المصيري . الذي يدفعه أن يضحي بأي شئ وكل شئ في سبيل الوصول إلى هدفه وتحقيق قصده . وفي فصول هذا الكتاب . قلنا أن هناك تطابقا وتكاملا وتوافقا تام بين الدعوة وصاحبها فشخصية النبي مستمدة ملامحها وخطوطها وسماتها من الدعوة . وشخصية محمد نحسيد حي لتلك الدعوة . فإذا كانت القوة مكونا أساسيا . او طبيعة من طبائع تلك الدعوة . فشخصية الرسول كذلك . تنطلق في كل أقوالها وأفعالها بتلك الطبيعة .

هذه الخصيصة في شخصية محمد تلقي الضوء وتفسر الكثير من القضايا فالبعض يتعجب . من أين استمد محمد تلك الخبرة العسكرية في قيادة الجيوش وهو لم يسبق له أن خاض أي معركة أو تلقى خبرة عسكرية من أي قائد . أو عمل تحت إمرته ليعلمه من فنون الحرب وأساليب القتال ؟ ومع ذلك لم يخض الرسول غمار أي غزوة إلا وحالفه التوفيق وكان النصر يسير في ركابه أينما سار .

قد يجيب البعض بأن هذا التوفيق والسداد والنجاح في غزوات الرسول راجع إلى الوحي الذي يهديه ويرشده .

ونحن لا ننكر ذلك . ولكن كثير من الغزوات التي خاضها الرسول والمسلمون كانت نتيجة تدبير عقلي صرف . وأن الوحي لم يتدخل لا من قريب ولا من بعيد

وأن الوحي لم يشر على الرسول بأي خطة أو مناورة أو حركات تكتيكية ، وأن الرسول في تلك الحالة وهذا الموقف لم يستهد ولم يسترشد سوى بعقله وبعد نظره وسداد رأيه ومشورة الصحابة .

ولكن هذا يحيلنا إلى البداية التي بدأنا منها ، ويظهر السؤال أمامنا مرة أخرى : كيف تسنى للرسول هذا النجاح والتوفيق في كل غزواته ، حتى تلك التي هزم فيها المسلمون ، فما حدث في تلك الغزوات لم يكن راجعا إلى سوء تخطيط أو إلى سوء تقدير ولكن كان راجعا إلى مخالفة تعليمات وأوامر القائد ، وعدم الالتزام الحرفي بأوامره .... كيف لرجل يقود تلك الجيوش ، وهو لم يتدرب ولم تكن له خبرة سابقة ، ولم يؤثر عنه قبل ذلك أنه قاد حتى سرية ، ولم يؤثر عنه الميل أو التفكير بأي شيء يتعلق بأمر الحرب والكر والفر ؟

ولكن من قائل أن النصر في الحروب راجع إلى خبرة وعلم ومعرفة القائد ؟

فالتاريخ يحدثنا أن أكثر القواد خبرة وعلم ومعرفة ، كل هذا لم يمنعهم من أن يذوقوا مرارة الهزيمة ، وكسرت جيوشهم وهزمت شر هزيمة .

إذن ليس العلم والخبرة والدربة هم الأسباب الوحيدة التي يكون عليها المعول في النصر أو الهزيمة ، بل هي أسباب من ضمن أسباب أخرى ، قد لا تكون فعاله إن لم تنضم أو ينضم إليها بقية العناصر ، بل إنها قد تورد الجيوش موارد الخسران والهزيمة إن اعتمد عليها القائد دون غيرها ، لأن الخطة التي يضعها القائد قد تكون خطة عبقرية لا مثيل لها ، ولكن كل هذا والخطة ما تزال أفكارا هائمة في رأس صاحبها ، أو خطوط متعرجة أو مستقيمة أو متقاطعة على الورق أو على أرضية الميدان ، أما حين تطبق تلك الأفكار وتجسد تلك الخطوط في الواقع وعلى الأرض ، ومن خلال الآلاف من البشر ، مطلوب منهم الشجاعة والجرأة والتضحية بأنفسهم وأرواحهم وبذل مهجهم والاستماتة والصبر .... فالأمر هنا مختلف ، بل أن التاريخ يحدثنا أن كثيرا من الأفكار والخطط حينما نفذت وطبقت على أرض

الواقع تغيرت تغيرا كاملا ، بل لا يكاد لا يكون هناك أي علاقة بين ما وضع على الورق وما نفذ سواء كانت النتيجة نصرا أو هزيمة .

إذن الجيوش لا تقاد بأفكار أو خطط ، كذلك النصر لا يتحقق بتلك الأفكار والخطط ... الأمر أكبر من ذلك وأشمل وأخطر وأعقد .

ورب سائل يسأل : هل إذا توافرت الأمور - بل كل الأمور - للقائد ، ولم يتوافر العلم والخبرة والخطط والأفكار .... هل هذا يحقق النصر ؟

الإجابة بالنفي طبعا .

فكل الأمور لا تغني عن العلم والخبرة والخطة المحكمة والأفكار المبتكرة فنحن لا نستبعد أي عنصر من العناصر المحققة للنصر ، وإن كنا نستطيع أن نقول أيهم أهم وأيهم الأهم ، فهنا يجب أن يحدث تكامل وتجميع للعناصر ، وليس إنقاص أو تشتيت أو تفريق .

إذن لا غنى عن العلم والخبرة .... فمن أين حصل عليها رسول الله ؟

ينبغي أن نوضح أولا أن العلم والخبرة والمعرفة وسائل أو طرق أو أساليب نتبعها أو نسترشد بها لتصل بنا إلى نتيجة مرجوة أو مبتغاة . أو قل إنها طرق ووسائل وأساليب لترقية العقل أو صقله أو إكسابه القدرة والاستطاعة على حسن التصرف ، أو فتح أمامه سبلا متعددة للحركة والتصرف ، أو إمداده بالبدائل الكثيرة والمتعددة - وأيضا - تمكينه من اختيار أفضل وأحسن البدائل التي تساعد وتساهم في تحقيق الهدف في أسرع وقت وبأقل جهد أو كلفة .

وإن لم يحقق العلم والمعرفة والخبرة هذه النتائج فلا قيمة لهم ، وكثيرا ما وجد العلم والمعرفة والخبرة ولم نر أي نتيجة ، فليس من اللازم اللازب أن يكون لكل علم ومعرفة وخبرة نتيجة ، كذلك ليس من اللازم اللازب أن يكون هناك نتيجة لكل علم معرفة وخبرة .

وتفسير ذلك يرجع إلى الشخصية .

هنـاك شخصيات في غنى عن العلم والخبرة ، ليس لأنها ليست في حاجة إليها ، ولكن لأنها وهبت طبيعة خاصة ، تلك الطبيعة الخاصة وصلت بها وفي أحيان كثيرة تجاوزت ما يصل إليه الشخص بالعلم والخبرة . فالعلم والخبرة يزودان شخصية الإنسان بخصائص وسمات ما ، تلك السمات والخصائص هي التي تفرق بين الإنسان العالم الخبير وبين غيره مما لم يحصل على تلك الأمور. تلك الخصائص والسمات هناك شخصيات تحصل عليها بغير تلك الطرق ، خلقت بها وصلت إليها بطريقة ما ، بغير تلك الطرق المتعارف عليها ، هذا الشيء نجده بين الحشرات والطيور والحيوانات .

فهن يدركن أمورا أو يسلكن سلوكا ما أو يتصرفن تصرفا ما ، تلك الأمور أو السلوك أو التصرف معقد بصورة كبيرة بحيث ينالك العجب ، كيف لـ' 'ك الكائنات أن تتصرف على تلك الصورة وهي لم تنل قسطا من التعليم أو المعرفة أو حتى الخبرة .

وقد حللنا - نحن البشر - تلك المعضلة - بالنسبة لنا بأن قلنا إن تلك الكائنات تتصرف بوحي من الفطرة او الغريزة ، هذه الفطرة أو الغريزة تغني عن كل تعلم ومعرفة وخبرة ، بل أن الذي تعلم وعرف ومارس الخبرة يعجز أن يتصرف على مثالهن ؛ لأن الذي تعلم وعرف وخبر قد تخونه تلك الأمور ، أو تتخلى عنه في بعض المواقف أو يسئ استعمالها أو يخطئ في التصرف أو .... أو.....

لأن العلم والخبرة لم تنزل من كيانه منزلة الطبع والسليقة ، وإنما هي أشياء مكتسبة ، وتظل مكتسبة ، أي طارئة على شخصيته ، وهناك فرق هام بين من يتصرف بوحي الفطرة والغريزة ، ومن يتصرف وفقا لما تمليه عليه خبرته وعلمه .

أن الأول لا يملك أن يبدل أو يغير أو يحول أو يوقف إملاءات الفطرة والغريزة ، أو أن يقلل من حدتها أو سورتها ، كذلك ليس هناك من سلطان عليها حتى صاحبها ، فهي تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس ، والنور عن القمر

والأريب عن الزهرة ، بينما الثاني يناقض هذا تماما في كل شئ . فقد يتصرف العالم الخبير تصرف الجاهل العاطل من كل خبرة ، وقد يتعرض لضغوطات ومؤثرات تجعله يغفل أو ينسى أو يغير أو يبدل ويحول ... إلخ .

ومع ذلك فالمعتمد والمعترف به عندنا نحن البشر هما العلم والخبرة ، وليس شئ آخر ، لأن أمر الفطرة أو الغريزة لا يتوافر وجوده إلا في أحاد الناس كالأنبياء والرسل والقواد والزعماء ، أما الملايين فالأمر معهم يرجع إلى العلم والخبرة والإنسانية لا تستطيع أن تقيم بنيانها العلمي على ما لا يتوافر إلا في أحاد الناس ولا يوجد في الملايين ، ولكن وجوده في الأحاد وعدم وجوده في الملايين لا ينفيه بل يؤكده ويثبته .

○ الأمر بالنسبة لمحمد ﷺ :

وليس معنى أن محمدا رجل أمي ، لم يتلق علما كغيره ، لأنه لم يقرأ والقراءة هي الوسيلة الرئيسة في تلقي وتحصيل العلم ، ليس معنى أنه لم يحصل على العلم بالطرق المتعارف عليها أنه جاهل أو عطل من أي علم أو معرفة ، فلديه من السمات والخصائص والخلال والمواهب ما يمنحه العلم والمعرفة والخبرة ، بل أكثر بكثير ، فالعلم والخبرة المكتسبة لها حدود ، محدودة بزمانها ومكانها ومصدرها وبحالة المرسل لها وبحالة المستقبل لها ، ووليدة العقل والمنطق أو هي خاضعة له وهذان - أيضا - لهما حدود ومستويات . الأمر مع محمد تجاوز كل تلك الأمور وربما تكون هذه هي الحكمة من وراء جعله لا يقرأ ، حتى لا يشغل بما يمكن أن يتلقاه من علم ومعرفة ، عما هو مركوز في فطرته وثابت في طبعه ، أو أن يحجب ما أكتسبه ما هو فطري ، أو يقلل ما هو تطبع في شخصيته عما هو طبيعي ، فمحمد لم يحصل على العلم والمعرفة من مصدر بشري ، كيف وهو المصدر لكل علم ومعرفة ؟ ومحمد لم يكن في حاجة لأنه هو المنبع ، ومع ذلك فقد فتح عقله وفكره لكل ما في زمنه من علم ومعرفة ، لتكون متواصلة ومتجاوبة ومتفاهمة ومتفاعلة مع قضايا

ومشكلات ومآزق زمنه ، أو قل أن تلك الشخصية اشترت أجمل وأفضل وأحسن ما في رياض العلم والمعرفة ، واصطفت واختارت ماله نفع وجدوى للإنسان ، وما أخذه طبقه بعيدا عن الهوى والمصلحة الشخصية ، فكل ما فعله كان رائده النفع للإنسانية ليس في حاضرها فحسب ، بل أيضا في مستقبلها ، ليس القريب ولكن البعيد ، بل ما ينفعها طالما كانت موجودة فوق تلك الأرض .

والعلم والمعرفة مع محمد ، ليس كالعلم والمعرفة مع غيره ، فكثيرا بل دائما ما أثرت شخصية العالم على علمه ، وتدخلت نوازع وميول الشخصية في تحجيم درجة الإفادة من هذا العلم ، بل أن التاريخ يحدثنا أن كثيرا من العلماء قد أضروا البشرية بعلمهم أكثر مما نفعوا .

وقد كان محمد متواضعا متسامحا متفتح العقل والوجدان ، محبا للحياة وللبشر والخير والجمال ، يقدر القيمة الإنسانية ، لا يذدري منها حتى العيوب والنقائص ، بل يعاملها برفق وشفقة ، محاولا جبر هذا الضعف ، مقدرا المواهب مشجعا أي مقدرة ، محتفلا بأي عبقرية ، فلم يكن علمه ومعرفته - التي لا نظير ولا مثيل لهما - يحجبان من حوله أو يقللان من شأنهم ، لأنه كان يتوج تلك المعرفة وهذا العلم خبرة ودراية عجيبة ونادرة بطبائع النفوس وسبر لأغوارها ومعرفة لمعدنها ، فكان يفتح المجال أمامها ويقوم بتشجيعها ورعايتها ودفعها وحضها لذلك جمع محمد حوله أنواعا وأصنافا ودروبا شتى من النوابغ والعبقريات في جميع المجالات التي تحتاجها أي دعوة أو رسالة " أحاط بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والأقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب مختلفون في الأمزجة والأخلاق ، مختلفون في ملكات العقول وضروب الكفايات مختلفون في فهم الدين وبواعث الإسلام فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الإنسان ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته

التي هو أصلح لها وأقدر عليها ، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال . بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال .

وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبي إياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس ، وسبره العميق لأغوار الطبائع والأفكار[١٥٩] .

○ استراتيجية مبكرة :

لكل دولة ولكل إمبراطورية أمنها القومي . أي تلك المساحة أو الحدود خارج مناطق نفوذها الفعلي والتي تكون مؤمنة ولا تمثل خطرا لا في الحاضر ولا في المستقبل . ولا تكون مؤمنة إلا إذا كانت بعيدة عن هيمنة وسيطرة أي قوة غريبة أو عدو قد يمثل خطورة أو تهديدا من أي نوع على الدولة أو الإمبراطورية .

فلا تستطيع أي دولة أو إمبراطورية أن تعيش داخل حدودها مكتفية بتوفير وسائل الأمن والسلامة غاضة نظرها عما يحدث خارج تلك الحدود ؛ لأن كل الأخطار والتهديدات التي تمس وجود الدولة أو الإمبرطورية آتية من خارج الحدود ومن مواقع بعيدة جدا ، قد لا يفكر أحد أنها تمثل خطرا أو تهديدا .

هذا الإمراء من سمات الفكر الاستراتيجي في أعلى مستوياته ، وبقاء الدول والإمبراطوريات على قيد الحياة والوجود مرتبط بتبني هذا الفكر ، وتحلل وزوال الدول والإمبراطوريات حادث وواقع لا محالة إذى أهمل هذا الفكر ولم يقم بتنفيذ تلك الإجراءات والخطط والتحركات التي يمليها أو يحتمه هذا الفكر .

فهل كان محمد - ﷺ - يفكر هذا التفكير ؟

وهل اتحد في الاجراءات والخطط والقرارات ما يتفق وهذا الفكر ؟

١٥٩- عبقرية خالد - عباس محمود العقاد - صفحة (٦٩) .

وإذا حدث ذلك ، فمَن أين لمحمد هذا الفكر وهو لا يتأتى إلا لمؤسس دولة أو منشيء إمبراطورية ، وقد توافرت له التجارب والمحاولات والمعالجات مع سابق خبرة مستمدة من التعليم أو القراءة أوسار على نهج سابق له في هذا المضمار ... وكل هذا لم يتوافر لمحمد ؟

الأمر كان مع محمد فطري أو حدسي ، أملته الظروف والوقائع والأحداث مع ما توافر لمحمد من صفاء ذهن ونظر ثاقب وإحساس بالمسئولية وتحمل تبعات دوره كقائد وزعيم .

فحينما هاجر من مكة إلى المدينة ، ورأى أن المدينة بكل ما وفرته له من أمن واستقرار وحماية ، تصلح أن تكون قاعدة صلبة وحيوية ينطلق منها الإسلام والمسلمون ، وأدرك أن أي دعوة في بداية عهدها – لكي تستقر وتستغلظ وتستوي على سُوقها – لابد أن يتوافر لها عنصر الأمن ولن يستطيع أن يوفر لها عنصر الأمن إلا بالقضاء على مصادر الخطر والتهديدات من حول المدينة ، وهي تلك القبائل من العرب والأعراب المحيطة بالمدينة ، فهي إما أن تغير على المدينة ، أو تعاون أو تتعاون مع غيرها . فبدأ بتنظيم السرايات والغزوات كلما سمع على نية أو تهيىء إحداها للإغارة على المدينة، ودخل في حروب مع بعضها منتصرا،والبعض قامت بينه وبينها معاهدات للدفاع المشترك ، أو عدم التعاون مع الأخرين عليه. ولم يغفل محمد عن أهم خطر يهدد الدعوة وهي في مهدها ، وهو الخطر اليهودي ، فهم يمثلون – بأنفسهم – خطرا وتهديدا على الإسلام ، أو من خلال تعاونهم أو تحريض المكيين والقبائل الأخرى ، فكان الرسول يتربص بهم حتى استأصلهم من الجزيرة العربية كلها .

وبقيت مكة تمثل التهديد الأكبر للمسلمين والإسلام ، وبعد حروب ومعاهدات واتفاقات ونقض لتلك المعاهدات من جانب المكيين ، تم لمحمد فتح مكة .

فهل استنفد الفكر الإستراتيجي أغراضه بعد فتح مكة . وأصبح الإسلام والمسلمون في المدينة وفي غيرها في أمن وسلام ؟

الرسول كان يرى الأمن القومي للمسلمين والإسلام يبدأ من المدينة ويمتد إلى جميع فضاءات العالم ، وهو لم ير الأمن توفره مناطق يسيطر ويهيمن عليها المسلمون من خلال الغزوات والجيوش والانتصارات والفتوح ولكن الذي يوفر الأمن للمسلمين هو الإسلام نفسه . فالأماكن والبلدان والدول التي ينتشر فيها الإسلام هي مناطق أمن وأمان للمسلمين . بدليل أنه كان هناك تعاليم لقواده أثناء توجههم لغزو قوم أن ينتظروا موعد الصلاة . فإذا سمع الأذان وإقامة الصلاة انصرف المسلمون عن القوم بدون غزو .

إذن الذي كان يوفر الأمن لا مناطق مسيطر عليها ولا تحافل الجيوش إنما الإسلام نفسه فكل الغزوات والمعارك والحروب التي خاضتها جيوش الإسلام ليس من أجل السيطرة على موارد أو إحتلال أراضي أو إخضاع شعوب وأمم وجماعات لقوة مهاجمة أو غازية . وإنما لفتح طريق لتلك الأمم للدخول في الإسلام وإعطائها الفرصة لتختار- بكل حرية واقتناع . بدون جبر أو إرغام أو اضطهاد أو عسف أو ظلم - أي الأديان . فإذا دخلت في الإسلام واعتنقت مبادئه . فلها ما للمسلمين وعليها ما على المسلمين . وربما سائل يسأل : إذا كان الإسلام حرر الأمم والدول من حكامها وأخذ المسلمون مكانهم في الحكم والسيطرة . فما الفرق ؟

الفرق أن الإسلام لم يخضع تلك الأمم والشعوب لسيطرة حاكم أو لهيمنة فئة . وإنما طلب منها بكل حرية واختيار أن تدخل في حكم الله . وهذا ليس فيه إجبار أو إرغام . فإن شاء الناس أن يبقوا على ما هم من نصرانية أو يهودية أو أي ملة أخرى فلهم ذلك ؛ لأن هناك أساس من أهم أسس الإسلام . ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٦